

البلاغة والنقد الأدبي: الوظائف والمساحات المشتركة

دراسة تاريخ النظم وتطوره

د. هشام كركاعي

جامعة القاضي عياض/مراكش المغرب.

تقديم:

بالرغم من التقاء البلاغة والنقد في مساحة عمل واحدة هي النص الأدبي، إلا أن بينهما فروقا ما بين العلم والفن، فالبلاغة علم يقوم على قواعد وحدود وتقسيم وتحكم مقولاتها قيود منطقية، والنقد فن يقوم على التحليل والحكم والتعليق والتقويم وتحكم عملياته حرية إبداعية، لكن هذه الفروق لا تمنع من تداخلهما وتجاورهما ما دامتا يلتقيان في منطقة النص الأدبي فتحضر مقولات بلاغية في النقد وتؤدي عمليات نقدية في البلاغة، مما يفرز فنا نقديا بطعم علم بلاغي، وعلم بلاغيا بذوق فن نقدي، ويعتبر النظم من أهم المساحات المشتركة بين النقد والبلاغة لاضطلاعهما بدراسة تاريخه وتطوره الاصطلاحي باعتباره وليجة للكشف عن أسرار إعجاز النص القرآني.

و سنحاول في هذه الورقة البحثية بيان الدور التاريخي للبلاغة والنقد في دراسة تاريخ النظم العربي وتطوره للكشف عن أسرار إعجاز النص القرآني بالتركيز على عبد القاهر الجرجاني الذي شكل حلقة وصل بين البلاغيين النقاد وعلماء الاعجاز بنظريته في النظم.

Abstract

Despite the confluence of rhetoric and criticism in one workspace, which is the literary text, there exist differences between them as the differences between science and art; rhetoric is a science of rules and boundaries and its statements are ruled by logical restrictions; however, criticism is an art that is based on analysis, judgment, comment, and evaluation and its processes are governed by a creative freedom. Yet,

these differences do not hinder their overlapping as long as they converge in the area of the literary text. So, some rhetorical statements might occur and lead to critical processes in rhetoric, which produces a critical art with a rhetorical taste and a rhetoric with a taste of a critical art. Versing (Nazm) is considered as one of the most common spaces between criticism and rhetoric as they investigate its history and evolution of its concept for it reveals the miracles of the Quranic text. We also attempt in this paper to show the historical role of the rhetoric and criticism in the study of the Arabic prose' history and evolution to uncover the secrets of the Quranic inimitability by focusing on Abdulkaher El Jurjani, who linked between critics rhetoric and the inimitability scholars in his theory of versing (Nazm)

1-النظم عند البلاغيين و النقاد

أ- الجاحظ (255هـ)

يعد الجاحظ من أهم البلاغيين النقاد الذين أولوا عناية خاصة بالنظم حيث سمي أحد كتبه "نظم القرآن" وقال في كتابه "البيان والتبيين": "وقد جعل الله قوم كل نبي هم المبلغين والحجة، ألا ترى أنا نزعنا أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزاً"¹، وقال في كتاب الحيوان: "وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"²، والجاحظ في هذين النصين وغيرهما يؤكد أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه غير أن كتاب "نظم القرآن" للجاحظ لم يصل إلى أيدينا ولو وصل لوجدنا فيه زادا علميا وخيرا، وكان مصدرا أصيلا للدراسات القرآنية، بيد أننا نجد في مصنفاته الأخرى بعض التقول وبعض الآراء التي قد تعيننا في تفهم مفهوم الجاحظ للإعجاز القرآني القائم على النظم³، ويشير الجاحظ في موضع آخر مستخدما مصطلح النظم إلى الترابط بين معرفة نظم القرآن ومعرفة نظم سائر الكلام عند العرب يقول: "وفرق ما بين نظم القرآن، ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف فروق النظم واختلاف البحث إلا من

عرف القصيد من الرجز والمخمس من الأسجاع والمزدوج من المنثور والخطب من الرسائل وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات ،فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام⁴.

ويرتبط النظم عند الجاحظ أيضا بمصطلحات أخرى كالتلاحم والسبك والإفراغ والسلاسة يقول: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"⁵.

وإن كان الجاحظ يقترب اقتربا شديدا من روح النظم عند عبد القاهر فيما قاله عن الصياغة والتصوير: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"⁶، إلا أن النظم عند الجاحظ مقيد بالوزن والصورة والتركيب، وكلامه على الوزن كان مطلقا في حين جاء حديثه عن الصورة مقيدا بثلاثة شروط الاختيار والسهولة والطبع ، وأما التركيب فاشتراط فيه أن يكون مسبوكا وهذه القيود تجعله متصلا بالشعر دون غيره من ضروب الكلام ،أما النظم عند عبد القاهر فمقيد بالنحو: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"⁷، وبالتعليق: " ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"⁸ وبمعاني النحو: "هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم وأنت ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"⁹.

وتقييد الجرجاني النظم بالنحو والتعليق ومعاني النحو يجعله متصلا بكل ضروب الكلام وهذا خلاف واضح في التصور، فالنظم عند الجاحظ يهدف إلى تمييز خصائص النص الشعري خاصة، أما النظم عند الجرجاني فيتناول مجالات التعبير اللغوي عامة ولا يختص بنص من النصوص لأنه يشمل النص النثري والنص الشعري و بالأساس النص القرآني المعجز بالنظم يقول عبد القاهر: "لأننا نحن فيما لا يكون الكلام كلاما إلا به و ليس للوزن مدخل في ذلك"¹⁰.

ب- ابن طباطبا العلوي (322هـ)

يرى أن أحسن الشعر "مَا يَنْتَظِمُ فِيهِ الْقَوْلُ انْتِظَامًا يَتَّسِقُ بِهِ أَوَّلُهُ مَعَ آخِرِهِ عَلَى مَا يُنَسَّقُهُ، قَائِلُهُ، فَإِنْ قُدِّمَ بَيْتٌ عَلَى بَيْتٍ دَخَلَهُ الْخَلَلُ كَمَا يَدْخُلُ الرَّسَائِلُ وَالْخُطَبُ إِذَا نُقِضَ تَأْلِيفُهَا. فَإِنَّ الشَّعْرَ إِذَا أُسِّسَ تَأْسِيسَ فُصُولِ الرِّسَائِلِ الْقَائِمَةِ بَأَنْفُسِهَا، وَكَلِمَاتِ الْحِكْمَةِ الْمُسْتَقْلَةِ بِذَاتِهَا، وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ الْمَوْسُومَةِ بِاخْتِصَارِهَا، لَمْ يَحْسُنْ نَظْمُهُ بَلْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْقَصِيدَةُ كُلُّهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي اشْتِبَاهِ أَوَّلِهَا بِآخِرِهَا نَسْجًا وَحُسْنًا وَفَصَاحَةً وَجَزَالَةً أَلْفَاظٍ وَدِقَّةَ مَعَانٍ وَصَوَابَ تَأْلِيفٍ."¹¹.

ولعل أقرب إشارة إلى النظم عند الجرجاني قوله عقب استشهاده بأشعار استدل بها على الجودة والحسن واستواء النظم: "لا تناقض في معانيها ولا هي في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضي كل كلمة ما بعدها ،ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها"¹²، وهي إشارة خفية منه إلى أن النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض وافتقار بعضها إلى بعض، بحيث لا يكون تناقض في معانيها ولا في مبانيها ولا يكون تكلف في نسجها ولا في تصويرها.

ج- قدامة بن جعفر (337هـ).

يشير أبو الفرج قدامة بن جعفر إلى صلة ائتلاف اللفظ والوزن بمعاني النحو في قوله: "وهو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بنيت، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها، وهي الأقوال، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها، ولا اضطر أيضاً إلى إضافة لفظة أخرى يلتبس المعنى بها، بل يكون الموصوف مقدماً والصفة مقولة عليها، وغير ذلك مما لو ذهبنا إلى شرحه لاحتجنا إلى إثبات كثير من صناعاتي المنطق والنحو في هذا الكتاب"¹³، ونظرة قدامة بن جعفر هنا إلى النظم هي نظرة جزئية، لأنه يهتم فقط بنظم الشعر وكيفية اتفاق ألفاظه وأوزانه على حسب ما تقتضيه قوانين النحو عكس نظرة عبد القاهر الشمولية والتي تشمل الشعر والنثر.

د- أبو هلال العسكري (395هـ)

تحدث أبو هلال في كتابه "الصناعتين" عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك قال: "وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمّي المعنى؛ وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها، وسوء الرّصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها"¹⁴.

ويبدو أن أبا هلال العسكري هنا يستعمل مفهوماً آخر وهو الرصف، والرصف عنده ضم كل لفظة إلى شكلها وإضافتها إلى لفقها، ووضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن الرصف، ووضعها في غير مواضعها دليل على فسادها، إلا أنه لم يستطع أن يصل بالرصف إلى ما وصل إليه عبد القاهر الجرجاني بالنظم.

2- النظم عند علماء الإعجاز

أ- الرماني (386)

قسم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني البيان من حيث تكوينه إلى مراتب " فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد. وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة"¹⁵، ويفهم من كلام الرماني أنه يشترط تحقق أربعة شروط لحسن النظم في العبارة هي حسن الوقع في السمع واللسان على اللسان، وحسن التقبل في النفس وأن يكون المقال على قدر المقام.

وقد يكون حديثه عن التلاؤم قريبا من فكرة النظم: " والتلاؤم تعديل الحروف من التأليف والتأليف على ثلاثة أوجه: متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا"¹⁶. ويجعل تلاؤم القرآن في الطبقة العليا حيث يقول: " وذلك بين لمن يتأمله (...) وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض (...) واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق"¹⁷، وهو بذلك يبين السبب في التلاؤم والفائدة منه، ويعود السبب إلى تعديل الحروف في التأليف، والفائدة منه: الشروط الأربعة الأنفة الذكر التي اشتراطها لحسن النظم في العبارة، وبذلك يكون النظم عنده بمعنى التأليف.

ب- الخطابي (388)

تحدث الخطابي عن النظم في كتابه (بيان إعجاز القرآن) وأكمل ما جاء به الرماني لمسألة النظم بمعنى التأليف، وما تخضع له الألفاظ والمعاني من أمور لتمام هذا النظم والتأليف فعرض الخطابي للعبارة كوحدة متكاملة في لفظها

ومعناها ونظمها وكان تركيزه شديداً على موضوع النظم¹⁸، ويرى الخطابي أن "الكلام إنما يقوم بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ومعنى قائم ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظاماً أحسن تأليفاً وأشد تلوّماً وتشاكلاً من نظمته، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها"¹⁹، كما يرى أن القرآن "إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"²⁰، ويقول: "إن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"²¹، والنظم عنده ليس سهلاً ميسوراً، وإنما يحتاج إلى ثقافة ومهارة قال: "وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر لأن لجام الألفاظ وزمام المعاني و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان"²².

وبذلك يكشف الخطابي عن نوع من الإحساس بانتظام عناصر النص الأدبي في وحدة خفية مما يعطي النظم مفهوماً جديداً يزداد وضوحاً مع من جاء بعده²³.

ج- الباقلائي: (403□□)

يرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي أن كتاب الله معجز بالنظم لأن نظمته خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، قال: "فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب

والشيء القليل العجيب وكما يلحق من كلامه ، بالوحشيات ، ويضاف من قوله إلى الأوابد، لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكاتب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه، ولو كان كل شعره نادراً، ومثلاً سائراً، ومعنى بديعاً، ولفظاً رشيقاً، وكل كلامه مملوءاً من رونقه ومائه، ومحلى ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستقل، والغث المستكر - لم بين الإعجاز في الكلام، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام.²⁴ وقال : "وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف"²⁵ وقال كذلك : " ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنما هو في نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ومرتبة في الوجود وليس لها نظم سواها"²⁶.

وقال عن القرآن إنه : " آية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعجز شاهدٌ بصدقه ، دالٌّ على نبوته من ثلاثة أوجه: أحدها: ما فيه من عجب النظم [وبديع الوزن والرصف المخالف لجميع أوزان العرب ونظومه، وأنه لا قدرة لأحدٍ من الخلق على تأليف مثله ، ونظم مثل سورة منه ، أو آية من طوال سورة أو من قصار سورة ، ولو كان في فصاحة يعرب وقحطان ومعد بن عدنان"²⁷، وهو في ذلك متأثر بالجاحظ الذي ذهب إلى أن مرجع الإعجاز في القرآن يعود إلى نظمه وتأليفه العجيب المبين لأساليب العرب في الشعر والنثر وما يطوى فيه من سجع"²⁸، كما أنه متأثر بفكرة الرمانى في الإعجاز وهي أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة"²⁹.

ويرى " أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوا في الشعر ووصفوا فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن

العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدريب به والتصنع له كقول الشعر
ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحدق في البلاغة...³⁰ⁿ.

وهو هنا ينفي أن يكون إعجاز القرآن في البديع لأنه أمر يمكن استدراكه
بالصنعة والدربة، وبالمقابل يثبت إعجاز القرآن في نظمه وصياغته، إلا أن
الفكرة عنده ظلت غامضة ولم يستطع توضيحها توضيحاً دقيقاً مما جعل
معاصره المتكلم المعتزلي أبو هاشم الجبائي (313هـ) يرفض فكرة النظم
كمحدد لإعجاز القرآن، وهو في إطار رفضه للفكر الأشعري سهل عليه
رفض المصطلح حتى جاء تلميذه القاضي عبد الجبار المعتزلي (415هـ)
فبين فساد رأي شيخه وأعاد لفكرة النظم مكانتها في الجدل بين الأشعرية
والمعتزلة وأهميتها كمحدد لإعجاز القرآن.

د- القاضي عبد الجبار الأسدي (415هـ)

عاد القاضي عبد الجبار بشيخه والمعتزلة عموماً إلى فكرة النظم واشترط
إلى جانبها جزالة اللفظ وحسن المعنى أي اعتبار المزية في الفصاحة والأهم
في عمله أنه رجع إلى المفهوم القديم للنظم، لكنه استبدله بمصطلح جديد هو
الضم ، ورغم هذا التغيير في المصطلح يبقى القاضي عبد الجبار أول من
أوضح المفهوم ووضع في مساره الصحيح يقول: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر
في أفراد الكلم، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد
مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون
بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد
تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تتغير فيه الكلمة أو
حركاتها أو موقعها ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار
مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام

صفة وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها³¹.

فالفصاحة عند القاضي عبد الجبار لا تظهر في الكلمة المفردة إلا بالنظر إلى موقعها من التركيب وإعرابها ونظامها النحوي، وهو بذلك يقترب من روح النظم عند عبد القاهر غير أنه يرى أن المعاني لا تظهر فيها المزية وإنما تأتي من الضم على طريقة مخصوصة يقول: "إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية وإن كان تظهر في الكلام لأجلها، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق، وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع والمعبر عنه في الفصاحة أدون فهو مما لابد من اعتباره، وإن كانت المزية تظهر بغيره"³².

كما أن المعاني عند عبد الجبار لا يقع فيها تزايد، ولكن التزايد يقع في الألفاظ التي يعبر بها عنها يقول: "إن المعاني لا يقع فيها تزايد، وإن فوجب أن يكون التزايد عن الألفاظ كما ذكرناه"³³، وهذان القولان: "إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"، ثم "إن المعاني لا تتزايد، وإنما يقع التزايد في الألفاظ"، هما اللذان يدور كتاب "دلائل الإعجاز" على توضيحهما وبيان معنهما، لا أنه يبطلهما أو يرد معنهما كما اعتقد ذلك محمود شاكر في مقدمة تحقيقه لكتاب "دلائل الإعجاز"³⁴، ومما يدل على ذلك قوله في فصل تحرير القول في الإعجاز الفصاحة والبلاغة: "وذلك أنهم قالوا: "إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات. وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"، فقولهم "بالضم"، لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصال يكون بين معنيهما؛ لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة، لكان ينبغي إذا قيل: "ضحك، خرج" أن يحدث في ضم "خرج" إلى "ضحك" فصاحة! وإذا بطل ذلك، لم يبق إلا أن

يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو فيما بينهما، وقولهم: "على طريقة مخصوصة"، يوجب ذلك أيضاً؛ وذلك أنه لا يكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى، وهذا سبيل كل ما قالوه، إذا أنت تأملت تراه في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا؛ ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه، ومما تجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم: "إن المعاني لا تتزايد؛ وإنما تتزايد الألفاظ، وهذا كلام إذا تأملت لم تجد له معنى يصح عليه؛ غير أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة على المزاي التي تحدث من توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم؛ لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان، محال".³⁵

فانظر إلى قوله: "قولهم بالضم"، لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة فهذا رد على أهل زمانه الذين لم يفهموا قول القاضي عبد الجبار بالضم وجعلوا المراد به النطق باللفظة بعد اللفظة كيف جاء واتفق، ولما كانت عبارة القاضي عبد الجبار غامضة وأوقعت معاصري عبد القاهر في هذا الغلط والاشتباه، تولى مسألة توضيحها وبين أن معنى ضم الكلمة إلى كلمة هو توحي معنى من معاني النحو فيما بينها، وأشار إلى أن قول القاضي عبد الجبار: "على طريقة مخصوصة" يوجب هذا المعنى، وانظر إلى قوله: "ومما تجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم: 'إن المعاني لا تتزايد؛ وإنما تتزايد الألفاظ...' فهذا أيضا إبطال لما ذهب إليه أهل زمانه عندما اعتمدوا على هذا الدليل ورجعوا إليه للدفاع عن مسألة الفصاحة في اللفظ، إلا أنهم بصنيعهم ذاك أحالوا كلام القاضي عبد الجبار عن مكانه، ويرى عبد القاهر أن هذا الكلام ليس له معنى يصح عليه؛ غير أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة على المزاي التي تحدث من توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم؛ لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان محال".³⁶

ولئن كان الجرجاني قد حمل أهل زمانه مسؤولية إحالة الأمور عن جهاتها لقلة تدبرهم وسوء نظرهم، فإنه عاتب أيضاً القاضي عبد الجبار على غموض عبارته وخفائها وعدم الإفصاح عن الغرض أو المقصود بدقة "واعلم أنه إذا نظر العاقل إلى هذه الأدلة فرأى ظهورها، استبعد أن يكون قد ظن ظان في "الفصاحة" أنها من صفة اللفظ صريحاً، ولعمري إنه لذلك ينبغي، إلا أنا إنما ننظر إلى جدِّهم وتشدُّدهم وبتَّهم الحكم "بأن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ"، فلئن كانوا قد قالوا "الألفاظ" وهم لا يريدونها أنفسهم، وإنما يريدون لطائف معانٍ تفهم منها، لقد كان ينبغي أن يتبعوا ذلك من قولهم ما ينبئ عن غرضهم، وأن يذكروا أنهم عنوا بالألفاظ ضرباً من المعنى، وأن غرضهم مفهومٌ خاص³⁷. وإذا كان الجرجاني قد تحامل على معاصريه لإحالتهم الأمور عن جهاتها و عاتب متقدميه لغموض عباراتهم وخفائها، فهل دقق في أمر النظم ووضح غموضه؟

3-النظم عند عبد القاهر الجرجاني(471 هـ)

يبدو ومن خلال ما تقدم أن نظرية النظم ليست نظرية ابتدعها عبد القاهر فينكرها منكر ، بل هي مبنوثة في التراث العربي القديم ولها أصول معرفية في البلاغة والنقد وعلم الكلام، ويؤكد الجرجاني نفسه هذا الأمر بقوله : " وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتتويه بذكره وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه ،ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم به ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ، وبتَّهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار والعمود الذي به الاستقلال³⁸ .

ففي هذا النص يعترف عبد القاهر بأنه مسبوق بغيره في مسألة النظم حيث يؤكد من جهته على هذا السبق المعرفي للعلماء قبله واتفاقهم على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره وإجماعهم على أهميته في حسن الكلام واستقامته

وإصدارهم الحكم على قيمته ومكانته، لكن عندما نتدبر قوله: "إلا أنهم وإن كانوا لم يستعملوا النظم في المعاني قد استعملوا فيها ما هو بمعناه، ونظير له"³⁹، وقوله في موضع آخر: "ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح"⁴⁰، يتضح إطباق العلماء - □□□□□ - على تفخيم شأن النظم، ولكن ليس باسمه، بل بمسميات أخرى شاعت عندهم منها النسج، والتأليف، الصياغة، الرصف، التلاؤم، البناء، الوشي، التحبير والضم، وتبدو هذه المعاني الاصطلاحية للنظم غامضة وفيها كثير من الإجمال وشعب من الاحتمال، والجرجاني عدو الغموض والإجمال وصاحب التحقيق والتدقيق، حيث نجده يحرص حرصا شديدا على أن يكون النظم أوضح من عبارات العلماء الغامضة وأدق، ويظهر هذا التدقيق والتحقيق في رده على غموض عبارة القاضي عبد الجبار في تفسير الفصاحة بقوله: "ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة: إنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر بها الفائدة أو ما أشبه ذلك من القول المجمل كافيا في معرفتها ومغنيا في العلم بها لكفى مثله من معرفة الصناعات كلها، فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثير التصاوير أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص وضم لطاقات الإبريسم بعضها إلى بعض على طرق شتى وذلك ما لا يقوله عاقل (...). وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تتصب لها قياسا ما، وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدّها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي

يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجر من الآجر الذي في البناء البديع"⁴¹.

وهذا النهج في التفصيل والتحصيل والتدقيق والتدقيق سلكه الجرجاني أيضا في بيان أمر النظم وتفسير المراد منه: "واعلم أن هاهنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن تقدم جملة من القول في النظم وفي تفسير المراد منه، وأي شيء هو؟ وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه؟ فينبغي لنا أن نأخذ في ذكره وبيان أمره وبيان المزية التي تدعى له من أين تأتيه وكيف تعرض فيه؟ وما أسباب ذلك وعلة؟ وما الموجب له؟"⁴²

وهذا يعني أن العلماء قبل عبد القاهر أدركوا مكانة النظم وأهميته في الكلام، ولكنهم لم يقفوا على أسبابه وعلة والموجب له، والتدقيق في هذه الأمور والتحقيق فيها هو الذي جعل النظم عند الجرجاني هو نظم الكلم بعضها ببعض، ولكن ليس نظاماً مطلقاً، بل هو نظم مخصوص بالتعليق، وليس كل نظم للكلم بعضها ببعض كيف جاء واتفق، بل هو نظم تتوخى فيه معاني النحو على حسب ما يقتضيه علم النحو وقوانينه وأصوله، ثم هو نظم لا تتحقق مزية الكلام في لفظه أو في معناه بدونه، ولا قوام فيهما إلا به، وهذا ما جعل النظم عند عبد القاهر يشمل نحو النص وبلاغته ونقده.

فعلى مستوى النحو ينظر إلى التعليق في النص باعتباره وحدة البناء النحوي لأنه يوفر شبكة العلاقات النحوية التي تتضافر فيما بينها لتكون نسيج النص وهي لا تعدو ثلاثة أقسام تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف

وعلى مستوى البلاغة ينظر إلى توخي معاني النحو في النص باعتبارها وحدة الإنتاج البلاغي فيعمل المبدع على إنتاج نصه بالنظر في الوجوه والفروق التي يراها في الخبر وفي الحال اللذين لهما ارتباط بمواضع الكلم في

النص والنظر في الفصل والوصل اللذين لهما علاقة بسرد الجمل المكونة للنص، ثم التصرف في التعريف، والتكثير، والتقديم والتأخير، وفي الحذف، والتكرار والإضمار، والإظهار، التي لها ارتباط بجمالية النص وإبداعيته.

وعلى مستوى النقد ينظر إلى المزية باعتبارها وحدة النقد النحوي البلاغي فيعرف الناقد ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه وما أتاه الحسن من الجهتين.

فالنظم عند عبد القاهر هو نظم بلاغي نقدي لا يبتغي فيه المتكلم الناظم غير أن ينظر في وجوه كل باب من أبوابه ويتصرف في الفروق والوجوه التي من شأنها أن تكون فيه، ولا يبتغي فيه المتلقي الناقد غير أن يبين تفاوت النصوص الإبداعية من حيث الجودة والحسن في النثر وفي الشعر حتى ينتهي إلى القرآن حيث تستوي الأقدام في العجز.

□□□□:

وعلى العموم فالناظر في الموروث البلاغي والنقدي يجزم بحقيقة التداخل والاشتراك بين البلاغة والنقد الأدبي في دراسة تاريخ النظم العربي وتطوره باعتباره وليجة للكشف عن أسرار إعجاز النص القرآني، إلا أن العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني وإن كانوا لم يستعملوا النظم في المعاني، فإنهم قد استعملوا فيها ما هو بمعناه ونظير له كالنسخ والتأليف والصياغة والبناء والتلاؤم والضم وهي مصطلحات فيها كثير من الإجمال والتداخل بين النقد والبلاغة حتى جاء عبد القاهر الجرجاني فأوضح مصطلحات العلماء الغامضة، ودقق في أمر النظم وحقق، ووضع كل علم مقامه الذي يليق به، بحيث يبتدئ النقد من حيث انتهت البلاغة دون أن يكون هناك فصل بينهما أو خلط، لكن هذا الأمر لم يكتب له الاستمرار مع العلماء المتأخرين بعد عبد

القاهر الجرجاني حيث تحول النقد معهم إلى بلاغة وفصلت البلاغة عن النقد
فصلاً أزهق روح النص الأدبي.

الهوامش والإحالات

- ¹- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة، ط7 1418هـ 1988 3 : 295.
- ²- ، الحيوان ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون دار الجيل، لبنان- بيروت، 1416هـ - 1996 4 : 90.
- ³- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، مكتبة الخانجي القاهرة، دط، دت، ص90 .
- ⁴- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، 1384هـ - 1964 4 : 31.
- ⁵- البيان والتبيين، ج1 : 67.
- ⁶- الحيوان، الجاحظ، ج3 : 131.
- ⁷- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود محمد مطبعة المدني بالقاهرة - 1413هـ - 1992 3 : 81.
- ⁸- نفسه 4.
- ⁹- نفسه ، ص454.
- ¹⁰- 354 39.
- ¹¹- محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، عيار الشعر، الحسني العلوي، أبو (322هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر - القاهرة، دط، دت، 213 :
- ¹²- 213 :
- ¹³- قدامه بن جعفر، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الكتب العلمية بيروت، 165 :
- ¹⁴- أبو هلال العسكري (395)، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق محمد الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ، ط2 1952 . 161 :
- ¹⁵- (386) (388) وعبد القاهر الجرجاني (471) إعجاز القرآن، الرسالة الثانية: النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرمانى، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر-القاهرة، 1976 107:
- ¹⁶- () : 95-94.
- ¹⁷- نفسه ، ص: 96-95.
- ¹⁸- صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الحديث طبعة 2003 : 77-76.

- 19-) : بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي) : 27 وينظر أيضا منير سلطان ، إعجاز القرآن بين المعتزلة 1977 . 159-158.
- 20-) : بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي) : 27 .
- 21- نفسه ، ص 29.
- 22- 36.
- 23- عبد القادر بقادر ، مصطلح النظم في النقد العربي القديم ، قسم اللغة العربية والأدب (الملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي يومي 9 10 2011 : 8.
- 24-) (403 تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف - 5
- 1997 : 112.
- 25- : 37.
- 26- الباقلائي، كتاب التمهيد، عني بتصحيحه ونشره ريتشارد يوسف مكارثي اليسوعي ، 1، المكتبة الشرقية بيروت، ط 1957 2 : 151.
- 27- الباقلائي، نكت الانتصار لإعجاز القرآن، تحقيق محمد عصام القضاة، دار الفتح عمان، دار ابن حزم بيروت، ط 1422 1 2001 : 66.
- 28- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، ط 6 : 109-108.
- 29- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن ، دار العلم للملايين، ط 1976 : 107.
- 30- : 111.
- 31- القاضي عبد الجبار ، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق الشيخ أمين الخول ، الشركة العربية للطباعة والنشر ط 1960/1 16 : 199 . ويوازن بما في الدلائل ، 44-46-55-56.
- 32- المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ص: 199.
- 33- نفسه ، ص: 199-200.
- 34-) (: " " .
- 35- : 395.
- 36- نفسه ، ص: 395.
- 37- : 454.
- 38- نفسه : 80.
- 39- : 53.
- 40- نفسه ، ص: 49.
- 41- 37-36.
- 42- نفسه ، ص 80.

2016
